اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

إذا كان هذا هو الحب عندك ، فأننى أشفق عليك .

فقال (ديجنه) إنه ما أحب إلا نساء المواخير فهو لا يدقق فى مثل هـذه الأمور . وأضاف إلى ذلك قوله : إنك لم تزل فتياً ، يا أوكتاف ، وتريد الحصول على أشياء كثيرة تنطبق على ما تتوهم ، ولكن هذه الأشـياء لا وجود لها ، فانك تعتقد بالحب ، بل بنوع غريب من الحب ؛ ولعل لك ما يجعلك قادراً على الشعور به ، غير أننى لا أتمناه لك . إنك ستتمتع بخيالات غير هـذه الخليلة يا صديق ، فتأسف لما فات الليلة الماضية ، إذ لا ريب فى أن هذه المرأة كانت تحبك عند ما جاءت إليك ، وقد لا تحبك فى هـذه الساعة ، ولعلها الآن بين ذراعى رجل آخر ؛ غير أنها فى تلك الليلة وفى هذه الغرفة كانت مولهة بك ، فاذا كان يهمك من الدنيا ؟ لقد أفقدت نفسك ليلة من ليالى العمر ولسوف يشجيك ذكرها لأنها مضت ولن تعود

إن المرأة تغتفر كل اساءة ، ولكنها لا تنسى ذنب من تهرع إليه فيردها ، ولو أن الغرام لم يذهب بها كل مذهب ، لما جاءت إليك مقتحمة صدودك وهى تعلم أنها مجرمة وقد اعترفت بجرمها .

لا ريب فى أنك ستأسف على هذه الليلة لأنك لن تقع بعد على مثلها .

وكان ديجنه يقول هـذا بكل ما فيه من قوة العقيدة وبرود الاختبار ، فكنت وأنا استمع إليه أحس بارتعاش فى جميع أعضائى وبحافز يهيب بى إلى الذهاب لمقابلة عشيقتى أو الكتابة لاستقدامها إلىّ ، ولكننى لم أكن قادراً على النهوض من فراشى ، فوفرت على نفسى التعرض لمشاهدتها تنتظر خصمى ، أو لأرى بابها موصداً عليه وعليها ، ولكننى كنت قادراً على توجيه رسالة إليها ، فكنت أفكر بالرغم منى فيما سأخاطبها به

وما بارحنى ديجنه حتى شعرت باضطراب شديد دفعنى إلى التفكير فى وضع حد لهذه الحالة مهما كلفنى

الأمر ، وبعد نزاع عنيف تغلب الاشمئزاز فيه على الحب ، كتبت إلى عشيقتى أننى لن أراها بعد ، وطلبت منها أن لا تحضر إلىّ إذا كانت تتحاشى أن أوصد بابى فى وجهها

قرعت الجرس وسلمت الكتاب إلى خادمى لايصاله بلا إبطاء إلى البريد ، ولكنه ما كاد يغلق الباب حتى ناديته فلم يسمع صوتى ، وما تجاسرت أن أدعوه ثانية ، فسترت وجهى بيدى واستسلمت لليأس العميق

الفصل الرابع

وعند بزوغ الشمس فى اليوم التالى ، كان أول ما خطر لى مناجاة نفسى بما يمكن لى أن أفعله بعد الآن

لم يكن لى مهنة ، وما كنت أتعاطى عملاً ، لأننى كنت درست الطب والحقوق وبقيت متردداً بين احتراف إحدى هاتين المهنتين ، ثم اشتغلت ستة أشهر فى أحد الحرف غير أننى لم أوفق إلى العمل بدقة ، فتداركت أمرى بالاستعفاء قبل أن أطرد ، وكنت درست كثيراً ، غير أن علومى كانت سطحية ، وكنت أنسى العلم بالسهولة التى أتلقنه بها

وكان استقلالى أعز شىء على بعد الحب ، وقد تعشقت حريتى منذ نعومة أظفارى

وكان والدى يخاطبنى يوماً بشأن مستقبلى عارضاً على مسالك عديدة للعمل فاتكأت على عارضة النافذة وحدقت بشجرة من الحور ممشوقة تتمايل فى الحديقة مع الهواء وأخذت أفكر فى اختيار مسلك لى ، وإذ لم يقف ذوقى عند واحد منها ، أطلقت لخيالى العنان ، فشعرت فجأة كأن الأرض تميد بى ، وكأننى لمست القوة الخفية الصماء التى تدفع بهذه الكرة فى الأجواء ، فخيل إلى أنها ترتفع نحو السماء وأنا عليها كواقف على مركب يمخر العباب وتراءت لى شجرة الحور كصار لهذا المركب ، فتراجعت عن مستندى ومددت ذراعى هاتفا : أية أهمية لمسافر لا يمضى إلا حينا من الزمن على هذا المركب ، فما هو الانسان ، ما هى هذه النقطة السوداء على ظهر هذه العائمة التائهة فى الأثير ، أفليس حسبى فى الحياة أن أكون إنسانا ، لا ، إننى أريد أن أصبح رجلاً له صفته الخاصة وطابعه الخاص

ذلك ما تمنيته أمام الطبيعة ، فكان رجائى الأول وأنا ابن أربعة عشر ربيعاً ، ومنذ ذلك الزمن لم أقم بأى عمل إلاّ إطاعة لأمر أبى ، ولكننى ما تمكنت يوماً من التغلب على طبيعتى المتمردة .

لم تكن حريتى إذا بنت كسلى ، بل كانت بنت عزمى وإرادتى ، وكنت أحب جميع ما خلق الله ولا أحب ما صنع الناس إلاّ يسيراً ، وما كنت عرفت من الحياة سوى الحب ومن العالم غير معشوقتى ، فاكتفيت بما عرفت

خرجت من المدرسة ، فمشت واعتقدت بملء الاخلاص أن هذا الحب سيسود حياتى بأسرها ، وهذا الاعتقاد أزال كل ما سواه من تفكيرى

وكنت أعيش منعزلاً فاقضى أيامى لدى عشيقتى وكان ألذ شىء عندى أن أذهب بها إلى الحقول أيام الصيف فأتوسد المروج الناضرة إلى جنبها ، إذ كنت أجد فى مشاهد الطبيعة الرائعة أشد مجدد

للقوى ، وفى أيام الشتاء كنت أذهب بها من مرقص إلى آخر ، وهكذا كانت تمر أيام حياتى متتابعة دون أن أقوم بأى عمل

كانت جميع أفكارى متجهة إلى العشيقة التى خدعتنى ، لذلك رأيتنى عندما انهتك خداعها كأنى أحيا ولا فكر لى

لا أجد ما أصور به حالتى النفسية سوى تشبيهها بحالة مساكن هذه الأيام حيث تجد الرياش مؤلفاً من طراز جميع البلدان وجميع الأزمان ، فنحن فى عصر لا طراز له لأننا لم نضع طابع زماننا لا على مساكننا ولا على حدائقنا ولا على أى شىء لنا . فانك لتصادف فى الشوارع رجالاً أطلقوا لحاهم على طراز عصر هنرى الثالث كما ترى رجالاً حلقوا الذقون وآخرين أرخوا شعورهم على زى أيام رافائيل وسواهم أرخوها على طراز زمن المسيح

وهكذا يخيل إليك أن مساكن الأغنياء معارض فنون إذ تجد فيها الطراز القديم وطراز عصر النهضة وعصر لويس الثالث عشر ، فلدينا من كل عصر أشياء ولا شىء لدينا من عصرنا ، وما شوهدت مثل هذه الحال فى أى زمن من قبل فنحن نذهب مذهب المتخيرين فنأخذ من كل ما نجد ؛ هذا لجماله وهذا لموافقته للراحة وآخر لقدمه وآخر لما فيه من القبح .. وهكذا نعيش على أنقاض كأن العالم قد اقترب من الزوال

على مثل هذا كان تفكيرى ، كنت طالعت كثيراً وتعلمت الرسم وحفظت أشياء تراكمت فى دماغى بلا ترتيب فكان رأسى كالاسفنجة متضخما على فراغه

وعشقت جميع الشعراء واحدا بعد واحد ، غير أن إغراقى فى تأثرى كان يحول كل إعجابى إلى آخر شاعر عرفته ويدفعنى إلى كره سائر الشعراء . وثابرت على هذا المنهج حتى أنشأت من نفسى مستودعا للعاديات ، وكنت اغترفت من كل حديث مجهول حتى بتمت فاذا أنا طال بال عليه شىء لم يزل فى مهبع الصبا ، هو أمل هذا القلب فى طفولته . ذلك هو أملى الذى سلم من كل وصمة ومن كل فساد وسكب الحب فيه كل قوى الحياة ، فاذا الخيانة تصيبه بالجرح القاتل ومكر العشيقة يرميه بأحد سهم وهو يطير فى أرفع أجوائه

وكنت أشعر أن فى نفسى شياء يتشنج فى استرخائه كأنه طير جريح يحتضر . إن المجتمع الذى ينزل الدواهى بافراده لشبيه بالأفعى الهندية التى تستقر فى الأعشاب الشافية للسعاتها ، فأنك كثيراً ما تجد قرب الأدواء التى تسببها أنجع علاج لها ، فالرجل الذى يتبع نظاما ينطبق على حالة المجتمع فى حياته فيعين وقتا لأعماله ووقتاً لزياراته وميعاداً لممارسة الحب .. لا يتعرض لأى خطر إذا هو فقد من يهوى لأنه أخذ فى أعماله وتفكيره نظاماً وترتيباً كصفوف الجنود المهيأة للكفاح ، فاذا سقط جندى منها انكمش الصف وقام آخر مكانه فلا يشعر أحد بفراغ ذلك المكان

أما أنا ، فما كان لى ما ألجأ إليه منذ أصبحت وحدى ، فكنت أقف أمام الطبيعة وهى أمى التى أحب فأراها تتسع حولى وتزداد فراغا ، ولو أمكننى أن أنسى عشيقتى كل النسيان لكنت نجوت

كثير من الناس يجدون الشفاء على أهون سبيل لأنهم يصمدون للخيانة متغلبين على الحب الجريح ولكن أنى لابن التاسعة عشرة أن يقتبس هذه

الطريقة فى حبه وهو يجهل كل شىء ويشتهى كل شىء وهو الشاعر بنمو جراثيم الشهوات كلها فى نفسه . هل لمثل هـذا الفتى أن تساوره الشكوك ، وهو كيفما التفت يميناً أو شمالاً أو علق نظره على الآفاق يسمع هاتفاً يدعوه إلى الشهوة والأحلام ؛ وما من حقيقة يمكنها أن تتسلط على القلب فى فتوته . كل شىء ينبت الأزهار للشباب حتى العقد المتصلبة فى أغصان السنديانة الهرمة . ولو كان للفتى ألف ذراع لمدها إلى الفضاء حتى إذا التفت على عشيقة أصبح هذا الفضاء فى نظره مليئاً عامراً

وما كنت أحسب أن فى العالم من عمل سوى الحب ، وعندما كان أحد الناس يخاطبنى عن غير الحب ؛ كنت أدير ظهرى والتزم السكوت

وكان ولعى بمحبوبتى ولعا وحشياً ألقى على حياتى طابع الرهبنة والنسك

ولأوردن حادثة واحدة تثبت ما صورت من حالتى :

كانت محبوبتى أعطتنى ذخيرة ضمنهـا رسمها المصغر ، وكنت أحمل هذه الذخيرة على خفق قلبى أسوة بكثير من الرجال ولكننى وجدت يوماً عند أحـد الباعة سلسلة حديدية علقت فى طرفها دائرة على ظهرها نتوءات شائكة فابتعتها وربطت الذخيرة عليها وحملتها مديراً النتوءات لجهة صدرى فكانت تغرز فى جلدى فأشعر من ألمها بلذة غريبة ، وكثيراً ما كنت أضغط عليها بكفى مستزيداً لذتى وآلامى...

وما كنت لأجهـل ما فى عملى من جنون ، ولكن هل من جنون لا يقدم الحب عليه ؟ وعندما عرفت بخيانة حبيبتى ، خلعت هـذه الذخيرة عنى ويعلم الله ما كان عذابى عندما تحررت من قساوتها

فكنت أزفر قائلاً : — إن أترك سيمحى ، أيهـا الجرح الدامى الحبيب فأى بلسم سأسكب عليك

وما كان تزايد كرهى لهذه المرأة ليزيل تذكارها من كيانى فكأنه بقى يتمشى مع دمى فى عروقى

كنت ألعنها ثم أحـلم بها . ومن له أن يقاوم الأحلام وأن يحكم عقله فى تذكارات قوامها لحم ودم ؟

عندما قتل مكبيث دوكانان هتف قائلاً : إن مياه المحيط لن تغسل يدى ؛ وأنا أيضاً كنت أرى أن مياه البحار كلها لن تغسل جراحى

وصـارحت دريجنه بحالتى فقلت له : دعنى وشأنى ، إننى عندما أستسلم للسكرى أرى رأسها ملقى على وسادتى

ما كنت أحيا إلا من أجل هذه المرأة ، فـا كنت أرتاب بها حتى ولو ارتبت بنفسى . فاذا ما لعنتها فكأننى أجحد كل شىء ، وإذا ما فقدتها فكأننى أرى الوجود بأسره مندثراً خالياً

وقبعت فى منزلى منقطعاً عن الناس ، إذ كنت أحسب العالم يغص بالمسوخ والحيوانات المفترسة ؛ وكنت أقول لكل من يحاول تسليتى : إن ما تقوله حق ، ولكن كن واثقاً من أننى لن أتبع نصحك

وكنت أستند إلى النافذة وأقول لنفسى : سوف تأتى ، لا ريب فى أنها قادمة إلى ، لقد دارت بمنعطف الشارع . إنى أحس باقترابها منى . إنهـا لا تستطيع أن تحيا بدونى كما لا أستطيع أنا أن أحيا بدونها . ماذا عسانى قائلاً لها وبأى وجه استقبلها ؟

وبينما أكون مستغرقاً فى هـذه النجوى كان خداعها يفاجىء تذكارى فأهتف قائلاً : لا ، لا أريد أن تجىء ، لا أريد أن تقترب منى ، فانى أقتلها

وما كنت سمعت عنها شيئاً بعد أن أرسلت لها كتابي الأخير فكنت أتساءل : ما تفعل الآن ، أتراها مشغولة بعشق سواي ، فما على إذن إلا أن أعشق سواها

ولكنني كنت أسمع صوتاً يهتف بي من الأبعاد قائلاً : ألك أن تحب سواي أنت ؟ لعلك جننت : . أذلك ممكن لشخصين سادها الحب فتعانقا واتحدا ؟ أنت لم تعد أنت بعد وأنا لم أعد أنا

وكان ديجنه يقول لي : متى تسلو هذه المرأة أيها الجبان ؟ أفترى في فقدك أياها خسارة لا تعوض ؟ وهل كان عشقها لك اللذة الوحيدة في الدنيا ؟ اتخذ لك عشيقة أخرى ولينته الأمر

فكنت أقول له : لا ، ليس فقدي لها بالخسارة العظمى ، أما فعلت ما وجب علي فعله ؟ أما طردتها من هنا ؟ فهل لك ما تقوله بعد ؟ أما الباقي فلا شأن لأحد فيه سواي . أليس للثيران إذا جرحت في الصراع أن تذهب بالنصل المغمد في كتفها إلى زاوية لتموت ؟

قل لي بربك ، إلى أين أذهب ، ومن هن هؤلاء النسوة اللواتي تسوقهن الصدف إليك . أنت تشير إلى السماء الصافية والأشجار الباسقة والمساكن العالية ، وإلى رجال يعربدون ويسكرون ويفنون ، وإلى نساء راقصات وخيول تتراكض في السباق ؛ وما كل ما تشير إليه هو الحياة ، بل هو صخب الحياة ، إذهب عني ودعني وشأني

(يتبع) فيكس فارس

نحن نشترى منكم قطنكم ونعيده إليكم

فأنتم الرابحون فى الحالتين

شركة مصر للغـــزل والنســـج

تمدكم بكافة المنســـوجات القطنية

قطن مصر . . صنع مصر . . فخر مصر

إنها احدى مؤسسات بنك مصر